تقلب الزمان بأهله

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فما ارتفع شيء من الأرض إلاَّ وضعه الله ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)** ﴾ [طه : ١٠٥ – ١٠٧]، ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)** ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، سبحانه يرفع أقوامًا، ويضع آخرين .

كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابي فسبقها، فشقَّ ذلك على الصحابة رضي الله عنهم ، فقال ﷺ : «**إنَّ حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلاَّ وضعه**» [رواه البخاري (٦٠٢٠) في كتاب الرقاق من حديث أنس] .

فالواجب علينا أن نتعرف على سُنن الله في خلقه، وأن نُحسن المسير إليه سبحانه، وأن لا نركن ونطمئن لشيء من الدنيا، فالنَّفس إلى موت، والمال إلى فوت ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. قال فرعون لقومه: ﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** ﴾ [الزخرف: ٥١] فأجراها سبحانه من فوق رأسه جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلاَّم للعبيد.

أين قوم نوح وعاد وثمود، وقرونًا بين ذلك كثيراً؟!!، سارت بهم الأيام والليالي سيراً حثيثًا، فأسلمتهم إلى ربهم، وقدمت بهم على أعمالهم ﴿ **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)** ﴾ [مريم: ٩٨]، قال سبحانه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)** ﴾ [الفجر: ٦ – ٨] كانوا عمالقة، وقالوا: ﴿ **مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** ﴾ [فصلت: ١٥]، فأرسل عليهم ربنا ريحًا صرصرًا عاتية ﴿ **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**

﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة: ٧، ٨]، زرعتهم الريح في الأرض على أم رؤوسهم زرع بصل كما يقولون.

قال تعالى: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٩ - ١٤].

فلا داعي للطغيان والكبر والغرور، لا داعي للتطاول والتألي على الله، فأنت من التراب، وإلى التراب تعود، أنت اليوم حي وغداً ميت، ولابد من الاتعاظ والاعتبار، فلو دامت لغيرك ما انتقلت إليك، والحذر كل الحذر من مخالفة أمره سبحانه، فالبحر مأمور والسماء مأمورة، والأرض مأمورة، قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ

﴿مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

ودخل داود عليه السلام غارًا فوجد فيه رجلاً ميتًا، وعند رأسه لوح مكتوب فيه: «أنا فلان بن فلان الملك، عشتُ ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمتُ ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيف، فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر، فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها، فمتُّ مكاني، فمن أصبح وله رغيف، وهو يحسب أنَّ على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتتي».

والغنى الحقيقي هو غنى النفس، فعشْ طاعة الوقت، وسل الله أن يختم لك بإيمان، ذُكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مئة سنة يُنفق في كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤي بعد مدَّة، وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها.

والصالحات هي أعظم ما أخرتَ لغدك ولتأمين مستقبلك، وقدموا لأنفسكم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٣٠) ﴾

[آل عمران: ٣٠].

لما قتَلَ عامرُ بن إسماعيل مروانَ بن محمد (آخر ملوك بني أمية في الشام) ونزل في داره، وقعد على فرشه، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: «يا عامر إنَّ دهراً أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه، لقد أبلغ في عظتك».

وقال مالك بن دينار: «مررتُ بقصر تضرب فيه الجواري بالدفوف، ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب، وبه عجوز، فسألتها عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله، إنَّ الله يغير ولا يتغير، والموت غالب كل مخلوق، وقد والله دخل بها الحزن، وذهب بأهلها الزمان».

ولما هاجر الصحابة رضي الله عنهم من مكة إلى المدينة، نظر البعض إلى الديار التي كانت عامرة بأهلها، ثم صارت خراباً، فأنشد يقول:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستُدركها النكباء والجوب

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت الحسن رضي الله عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك.

قال سفيان: فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

إنَّ للظالم قاتلاً لا يموت، وربك هو الحكم العدل، والجزاء من جنس العمل، اعمل ما شئت كما تدين تُدان.

دخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أرَ إلاَّ حامداً وذامًا، وأما الزمان فيرفع أقوامًا ويضع آخرين، وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم، ويفرق عديدهم، ويهرم صغيرهم، ويهلك كبيرهم. جرت العادة في تهذيب الذين تردوا في الرذائل حتَّى فسدت أخلاقهم، متى تركوا تعاطي الإحسان والأفضال، وتحري العدالة فلا يأتونها لا خلقًا ولا تخلقًا، ولا رياءً ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة، فصاروا في تعاطي الشر سواسية كأسنان

الحمار، وعدمت فيهم الفضيلة، فحينئذ إن بقي في نفوسهم أثر قبول الخير أنشأ الله فيهم من يهديهم باللسان والسيف، كبعثة النَّبيّ ﷺ في العرب لما بقي فيهم من أثر الخير، من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام، والوفاء بالذمم، وإن قلَّ فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفًا جائرًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

إنَّ الله ينتصف من أوليائه بأوليائه، ومن أعدائه بأعدائه، ويُعاملهم بما عامل به بنو إسرائيل، حيث سلط عليهم بختنصر، وإن عدم منهم أثر القبول، بعث عليهم عذابًا يفنيهم إما طوفانًا أو صيحة أو نارًا مُحرقة، أو ريحًا فيها عذاب أليم، أو الجراد والقمل والضفادع والدم؛ ليطهر منهم البلاد، ويريح منهم العباد، كما صنع الله بعاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وذلك كالأرض إذا استولى عليها الشوك فلابد من نسفها أو تسليط النار عليها حتَّى تعود بيضاء، ولا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا.

إنَّ تقلب الزمان بأهله من المعاني المشاهدة، وفي ذلك

عظة وعبرة لأولي الألباب، فالغني قد يصير فقيراً، والفقير يصير غنيًا، والقوي يصير ضعيفًا، والحاكم قد يصبح محكومًا عليه ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال سبحانه بشأن ما حدث يوم أُحُد: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقد قُتل سبعون من المسلمين يوم أُحُد، وهو نفس العدد الذي قُتل من المشركين يوم بدر، ونزلت هذه الآيات تسلية للمسلمين في مصابهم وقرحهم، ولا سواء؛ فقتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار، والله مولانا ولا مولى لهم.

ولله الحجة البالغة، والحكمة الباهرة حتَّى وإن خفيت على عقولنا القاصرة، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١- ٣].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وأيم الله، ما كان قوم قط

في خفض عيش فزال عنهم إلاَّ بذنوب اقترفوها؛ لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولو أنَّ الناس حين ينزل بهم الفقر، ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نيّاتهم لردَّ عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد.

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

وكفى بالقرآن واعظًا، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير.

وقيل: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال.

ويقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب.

وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلاَّ إدبارًا، والشر إلاَّ إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلاَّ طمعًا.

اضرب بطرفك حيث شئت، هل تنظر إلاَّ فقيرًا يكابد فقرًا، أو غنيًا بدل نعمة الله كفرًا، أو بخيلاً اتَّخذ بحق الله وفرًا، أو متمردًا كان يصمه عن سماع المواعظ وقرًا.

وقال آخر : نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ما ذكرنا الأحياء ماتت القلوب، ولا تقوم الساعة حتَّى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه، كم من إنسان ركب البحر ثم ركبه البحر، وملايين البشر ساروا على وجه الأرض حينًا، ثم طوتهم الأرض في بطنها.

ويُقال: لا يقاوم عز الولاية بذُل العزل.

وقال يونس بن ميسرة : لا يأتي علينا زمان إلاَّ بكينا منه؛ ولا يتولى عنَّا زمان إلاَّ بكينا عليه، ولن يأتي على الناس زمان إلاَّ والذي بعده شر منه.

وحكى عن شيخ من همدان قال : بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف إشرافة من كوَّة له، فخرَّ له من حول القصر سجداً، ثم رأيته بعد ذلك، وقد هاجر إلى حمص، واشترى بدرهم لحماً وسمطه خلف دابته.

فتعرَّف على السُّنن الكونيّة والسُّنن الشرعية، وكنْ على بصيرة من أمرك وأمر الناس، ولا داعي للاغترار؛ فإن اغترار بالله حمق، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو المبشر بالجنة

يقول: لو أنَّ إحدى قدماي في الجنة والأخرى خارجها، ما آمن مكر الله، ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ولا تفرح في بلوى أخيك فيعافيه الله ويبتليك، ولا داعي للشماتة؛ فقد تعوَّذ النَّبيُّ ﷺ من درك الشقاء، وسوء القضاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء، ولتكن بما في يد الله أوثق منك بما في يد نفسك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تُصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء.

عُدْ على نفسك باللائمة، ولا تسب الدهر، واعلم أنَّ الله غير مطعون في قضائه، فهو سبحانه بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهمَّ والحزن في الشَّكِّ والسَّخط؛ فاعمل عمل رجل لا يُنجيه إلاَّ عمله، وتوكل توكل رجل لا يُصيبه إلاَّ ما كُتب له، وقلْ: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه: ٨٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ماذا نفعل
إذا داهم العدو ديارنا ؟!

بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد :

فنحن نعيش في وقت كثر فيه الكذب، وضاعت فيه الأمانة، ونطق الرويبضة، وهو السفيه يتكلم في أمر العامة، وخوّن الأمين، وأوتمن الخائن، وصار الحب والبغض لأجل الدنيا، والولاء والبراء ليس لله فيه نصيب، وسميت الأشياء بغير اسمها، وقت غربة وجهالة صار فيه المعروف منكراً والمنكر معروفًا، وقت انتكست فيه المفاهيم وانعكست فيه المعايير، وقد جلست مع نفسي متأملاً كما جلس عمر بن عبد العزيز مع نفسه ثم نطق وقال : قبور خرقت الأكفان ومزقت الأبدان، مصت الدم وأكلت اللحم، تُرى ما صنعت بهم الديدان، محت الوجوه، وكسرت الفقار، وأبانت

الأشلاء، ومزقت الأعضاء، ترى أليس الليل والنهار عليهم سواء، أليس هم في مدلهمة ظلماء، كم من ناعم وناعمة قد أصبحت وجوههم بالية وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحُدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا حتى عادت العظام رميمًا، ثم قال: ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى، وبأي خديك سيبدأ البلى، وقال : يا ساكن القبر غدًا ما الذي غرَّك من الدنيا، أين دارك الفيحاء، بل أين رقاق ثيابك ؟ .

جلست أتفكر في حالنا إذا داهم الكفرة الفجرة ديارنا لا تمنيًا للبلاء فكلنا يسأل ربه العافية واليقين، ولكن أحاول التشبه بأنس بن النضر رضي الله عنه عندما غاب عن غزوة بدر، فقال: لأن أشهدني الله غزوة أخرى ليرين ما أصنع، فلما كانت غزوة أُحد سمع بمقتل رسول الله ﷺ - هكذا صاح فيهم الشيطان - ورأى أنس انكشاف أصحابه في مواجهة المشركين، فتبرأ إلى الله مما صنعه الكفار واعتذر إليه سبحانه مما جاء به إخوانه .

وقال قولته المشهورة : إن كان محمد قد مات فعلام الحياة بعده، قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه، ثم قال : وآه لريح الجنَّة إني لأجد ريح الجنة من دون أُحد، فقاتل حتى قُتلَ وما عرفته إلا أخته بطرف بنانه وفيه وفي أمثاله نزل قوله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** (٢٣) ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

إن الأعداء يتربصون بنا الدوائر ويحاولون افتراسنا الدولة تلو الأخرى، ولسان الحال ينطق أُكلتُ يوم أُكلَ الثور الأبيض، ومن اطمئن إليهم ووثق فيهم باء بخسران مبين فلا عهد لهم ولا ميثاق، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ [هود : ١١٣]، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥١) ﴾ [المائدة : ٥١]، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

كيف نأمنهم وقد خونهم الله، وكيف نعزهم وقد أذلهم الله، وكيف نكرمهم وقد أهانهم الله ؟!، ﴿ **هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١٩]، ﴿ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ [فاطر : ١٤].

إنهم يحاولون طمس هويتنا ويحاربون عقيدتنا ويسعون جاهدين لنشر الحرية الإباحية والديمقراطية اللواطية ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿ **يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وهذا قول العليم بخلقه بعيداً عن التزييف والتدليس والغش والخداع وشعارات الحرية والرخاء والأمن والاستقرار.

وهم في سبيل نشر كفرهم وضلالهم لا تأخذهم شفقة ولا رحمة بالنساء والأطفال، وكما شاهدناهم هنا وهناك يقتلون شيوخًا رُكع وبهائم رُتع وأطفالاً رُضع ﴿ **لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً** ﴾ [التوبة : ١٠]، ولا يراعون حرمة بيوت الله وشأنهم في ذلك قديمًا كشأنهم حديثًا يغيرون الشعارات التي يرددونها والثياب التي يلبسونها كشأن الحية

التي تغير جلدها والحرباء التي تغير لونها ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

أخذت أتفكر وأتأمل ماذا أصنع إذا داهم الكفار بلدي الذي أحبه وأرجو خيره وأمنه واستقراره، هل سأتركهم يدمرون البلاد والعباد لأجل تطبيق الديمقراطية وتحقيق الرخاء والأمن والاستقرار ؟!.

إن الشرع والواقع يكذب دعاوى هؤلاء الكفرة الفجرة، بل ويكذب أيضًا دعاوى الوطنيين والقوميين والاشتراكيين والبعثيين، في محبتهم البلاد والعباد، فالمحبة الحقيقية تكمن في الدلالة على طريق الإيمان ومتابعة منهج الأنبياء والمرسلين، وانتشال الخلق من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فالنظم الوضعية والفلسفات الكفرية والأديان المحرمة والمغيَّرة والمبدَّلة لا تحمل في طياتها خيراً ولا رخاءً ولا أمنًا ولا استقراراً، بل هي الدمار للحاضر والمستقبل والهلكة للبلاد والعباد، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً**

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦]، وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود : ١٠٢]، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج : ٣١].

أنعصي جبار السموات والأرض ونرجو رحمته وننشد الأمن مع كفرنا ونحن في قبضته ؟! ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٩].

إذا الإيمان ضاع فلا أمان، ولا دنيا لمن لم يحيي دينه، فالأمان لا يتحقق إلا بالإيمان، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام ٨٢].

فالمؤمن هو الذي يحب بلده وأهله محبة حقيقية مجردة من الأطماع والأهواء، والمنهج الإيماني هو الذي

يتحقق به الأمن والأمان في حياتنا الدنيوية والبرزخية والأخروية لكافة الخلق أتم تحقيق وشواهد ذلك كثيرة في حياة الأنبياء وأتباعهم فهذا صاحب يس يترك عمله وراحته وأهله ويأتي من أقصى المدينة يسعى لدلالة القوم على طريق السعادة والنجاة ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾

[يس: ٢٠-٢٥].

فأخذوه وقتلوه فنصحهم ميتًا كما نصحهم حيًا : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾ [يس : ٢٠-٢٦].

ثم لما قتلوه هانوا على ربهم، فكانت هلكتهم ولو آمنوا لكان خيرًا لهم، قال تعالى ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ

﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس : ٢٨-٣٠] .

أخذتُ أتأمل الصور والأشكال التي تحدث إذا داهم الكفرة بلدي، ولابد من تسمية الأشياء باسمها، وتقريبًا للمعاني في وقت تقلص فيه الشعور وضاع الإحساس بمصاب المسلمين هنا وهناك، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، «**ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

هل نحن صادقين في شعورنا بشعور الجسد الواحد تجاه قضية فلسطين والعراق ؟، قلت لنفسي لو داهم العدو بلدي وقتل الشيوخ والنساء والأطفال – والموت أقرب من أحدنا من شراك نعله – هل كنا سننشغل بتسريحة الشعر ومتابعة الموضة، ومشاهدة المباراة والدخول في حوارات حادة وعنيفة على الأفلام والأغاني وأيهما أفضل القديمة منها أم الحديثة .... وهل يصلح العلماني اللاديني والمرابي والراقصة ... لمواجهة الكفرة الفجرة الذين أتوا بخيلهم

وخيلائهم يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

لن نعدم من يقول بلسان حاله ومقاله : « أنا ومن بعدي الطوفان »، ويدخل بيته طلباً لسلامةٍ مزعومة حتى يذبحونه فيه أو يقذفونه بأسلحة الدمار التي لا تبقي ولا تذر، ويا حسرتًا على من تلظى بنيران القومية والبعثية والاشتراكية.. تارة، ثم بنيران الكفر والديمقراطية اللواطية تارة أخرى، ينتقلون من دمار إلى دمار ويتقلبون بين رحى المهلكات من هنا وهناك.

إن القاعد عن دفع الكفار عن عقر داره إما أن يكون مكذباً أو مخبولاً، وتخيلوا لو أحاطت بنا النيران من كل ناحية، فشأن العقلاء أن يخمدوا النيران أو يسارعوا بالهرب منها طلباً للسلامة والنجاة، فلو قعدوا مكانهم ولم يحركوا ساكنًا، فهؤلاء إما أن يكونوا مكذبين بوجود النيران وإما أن يكونوا مخبولين.

هذه المسألة التي نتكلم عنها لا تتحمل الفذلكة ولا الفلسفة ولا تحتمل الإجهاد العقلي أو تتطلب عقولاً كبيرة لفهمها بل هي قضية تفهمها الحيوانات، فالأسد يدافع عن

عرينه، والقط يستخدم مخالبه للدفاع عن نفسه والحمام يحوم حول عشه ويحمي وكره، ولكن يبدو أن البشر عندما ينسلخون عن شرع ربهم يفتقدون أبسط معاني الإدراك ويضيعون أنفسهم فلا عقل ولا شرع حتى وإن زعموا العقلانية، ولربما سعى البعض من جلدتنا وممن يتكلم بلساننا في إعانة الكفار وصار بذلك حرباً على الإسلام وأهله وأداة لقتل النساء والذرية، أشبه بمخلب القط والنعل الذي يدخلون به الحمامات يبيعون دينهم بعرض من الدنيا ويؤثرون الفاني على الباقي، وما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف (الرياسة) لدينه، وهذا الضعف هو إلى النفاق أقرب، قال تعالى : ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)** ﴾ [المائدة : ٥٢]. وقال تعالى : ﴿ **أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ١٣٩].

صور وأشكال أستعرضها وأنا أتأمل وأفكر إذا داهم

العدو بلدنا، ولست ممن يرجم بالغيب، فالواقع أغرب من الخيال ومن طالع السُنن والسير علم أصناف البشر، فخذوا حذركم وقدموا لأنفسكم، وعودوا لدينكم عوداً حميداً، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠]، تخلينا عن أسباب قوتنا الحقيقية فصال الكفرة وجال الفجرة خلال ديارنا، وبتنا ننتظر الدور متى نُذبح!!.

ومن المضحكات المبكيات :

أن يُرمى من دفع الكفار عن عقر داره بالإرهاب، وكأن المطلوب أن نقدم رقاب البلاد والعباد والنساء والذرية للمقصلة ونحن نبتسم بل ونهنئ الكفرة على ذبحهم لنا نشراً للأمن والرخاء !!، ومن اعترض انطرد ورمتني بدائها وانسلت وكاد المريب أن يقول خذوني، كل ذلك تصورتُه وتخيلته، ولكن ما أحزنني وكدت أجزع بسببه وانتابتني الحيرة تجاهه، أن أجد السيف على رقبتي والعدو قد داهم بلدي التي أحبها وأحب أهلها وأشاهد آثار الدماء وأسمع صراخ النساء والأطفال، وبدلاً من نصرة المسلمين لنا أسمع

خذلانًا وتخذيلاً، فهذا يدس رأسه في الرمال وكأن دماء المسلمين لا تعنيه، والثاني يتبجح أكثر ويقول: لا تعينوهم، والثالث ينساني حتى في دعائه، وإذا تذكر تذكر قضية فلسطين وكأنها تفترق عن قضيتي، والمذابح هناك تفترق عن المذابح التي تجري معي، والرابع اعتبره قتال فتنة، وأن المسلمين يقتل بعضهم بعضًا، وذلك لوجود بعض المنافقين في صفوف الكفرة الذين انتهكوا حرمة البلاد والعباد.

صورة محزنة من شأنها أن تقطع ما أمر الله به أن يُوصل، ولا يمكن أن تتحقق بها أخوة إيمانية، كلمات تصادم الشرع والواقع ولا يمكن احترامها ولا توقيرها، وإن التمست أنا عذرًا لأهلها فما هو شعور المسلمة التي يُنتهك عرضها والصغار الذين يواجهون هذه الهجمة التتارية البربرية في دنيا، افتقدت معاني الشفقة والرحمة من القريب والبعيد قبل افتقادها لمعاني الفقه والدين.

لقد اتفق العلماء على أن جهاد الكفار ودفعهم عن ديار المسلمين فرض عين، فإذا لم تحصل الكفاية بأهل بلدي انتقل الوجوب إلى الأقرب فالأقرب، فالمسلمون كلهم يد

على من سواهم، وإذا تعين الجهاد خرجت المرأة دون استئذان الولي والزوج، وخرج الولد دون استئذان والديه، والعبد دون استئذان سيده، والمدين دون استئذان صاحب الدين، كل بحسبه وبما يستطيعه من دفع الكفار عن هذا البلد الغالي، ولا يشترط وجود قيادة فإن استطاعوا تقديم الأصلح فعلوا .

قال الجصاص : « ومعلوم في اعتقاد جميع المسلمين أنه إذا خاف أهل الثغور من العدو ولم تكن فيهم مقاومة لهم فخافوا على بلادهم وأنفسهم وذراريهم أن الفرض على كافة الأمة أن ينفر إليهم من يكف عاديتهم عن المسلمين، وهذا لا خلاف فيه بين الأمة إذ ليس من قول أحد من المسلمين إباحة القعود عنهم حتى يستبيحوا دماء المسلمين وسبي ذراريهم، فليخشى من يخذل إخوانه المسلمين أن يخذله الله في موطن يحتاج فيه لنصرته، فقد جرت السُنن بذلك، فمن قدَّم يد العون فلنفسه أعان، ومن فرَّج كربة أخيه فرَّج الله كربته، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، والجزاء من جنس العمل، اعمل ما شئت كما

تدين تُدان، أما نحن فقد نفضنا أيدينا وقلوبنا من المخلوقين، وحسبنا الله ونعم الوكيل ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

لن نلتفت لشرعية دولية، ولا لهيئات ومؤسسات مشبوهة تكيل بمكيالين لا تبالي بدمائنا ودماء المسلمين التي تسيل أنهاراً هنا وهناك، وتقيم الدنيا ولا تقعدها من أجل حقوق الحيوان أو من أجل الكفرة الذين هم أهون على الله من الجعلان، ولا يسعنا ونحن نجاهد العدو بالنفس والمال من أن نضم إلى ذلك جهاد الكلمة، فالكلمة خطورتها كبيرة، وكم من كلمة أورثت حزنًا طويلاً وأوقعت في البلاد والعباد إرجافًا وتخذيلاً، وكم من كلمة أيضًا كانت أوقع من الحسام المهند، ولا حجر على سعة رحمة الله، فالبلاد تفتح بالقرآن كما تفتح بالسيف والسنان، واعلموا أن الخوف إنما يكون من الله وحده، فمن خاف الله خافه أعداؤه، ومن لم يخش الله خاف من كل شيء ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٧٥].

قضيتنا وقضايا المسلمين ما يصح أن تسقط بالتقادم فمن ديست مقدساته وانتهكت حرماته، وسُفكت دماؤه للحظة وجب نصرته، فكيف يكون الحال مع من يعاني ذلك سنوات، ما يليق أن يعترينا النسيان لواجبنا ولحقوق المسلمين المسحوقين من حولنا، فالله سائلنا عن ذلك، وعند الله تجتمع الخصوم، والكل موقوف به فأعدوا للسؤال جوابًا.

بكى يونس بن عبيد عند موته وسُئل عن سبب بكائه فقال: ـ وهو من هو ـ ما أغبرت قدمي في سبيل الله، ومن لم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق، وكان أويس بن عامر ـ سيد سادات التابعين ـ يعتذر إلى ربه من أن يبيت شبعانًا وفي الأرض ذي كبد رطبة جائع، وكان يرقع ثوبه ـ رحمه الله ـ، فإذا تنوعت أمامك الأكلات فتذكر إخوانًا لك في العقيدة لا يجدون رصيفًا آمنًا يسكنونه، ولا كسرة خبز يأكلونها، وإذا جلست بين أهلك وعيالك آمنًا في سربك فكيف يكون حالك إذا تبدلت المواقع وعانيت ما يعانيه إخوانك من انتهاك عرض وذبح والد وولد، تذكر كيف فُتحت عمورية لأجل امرأة كُشفت عورتها،

فاستصرخت وبلغ ذلك المعتصم فركب فرسه وتبعه الجيش وفتح عمورية، ثم قال : أين التي استصرخت ؟ .

وشهد النبي ﷺ حلفًا في دار عبد الله بن جدعان في الجاهلية، وكان الحلف لنصرة المظلوم، وقال ﷺ : « **لو دُعيتُ به في الإسلام لأجبت** »، والمظلوم اليوم هو المسلم الذي يقول : رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، وحكى لنا سبحانه قصة ثمود قوم صالح مع الناقة عندما خرج قدار بن سالف بعقر الناقة برضى قومه، قال تعالى : ﴿ **فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)** ﴾ [الشمس : ١٤-١٥] .

وحرمة المسلم أعظم من حرمة ناقة صالح، بل وأعظم من حرمة الكعبة المشرفة، كان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول : إن الله عظَّمك وشرَّفك وحرمك، وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

عباد الله :

من جاهد فإنما يجاهد لنفسه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها، ومن عمل صالحًا فلنفسه ومن

أساء فعليها، ولن نُهزم من قلة، وإنما النصر صبر ساعة ولا عز إلا في طاعته سبحانه، والذل والصغار على من خالف أمره ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران : ١٣٩].

ولا تجزعوا من ضعفكم واستضعافكم، فما النصر إلا من عند الله، ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال : ٢٦].

اللهم إليك نشكو ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، يارب المستضعفين أنت ربنا، إلى من تكلنا، أإلى بعيد يتجهمنا، أم عدو ملكته أمرنا، إن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لنا، نعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم بك نستغيث وبك نستجير، فاجبر كسرنا، وارحم ضعفنا، وانصرنا على عدوك وعدونا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثمار تدبر القرآن الكريم

بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد :

فالقرآن هو كلام الله، وهو أحسن الكلام، هو حبل الله المتين والذِّكر الحكيم والصراط المستقيم، أنزله سبحانه على نبيه ﷺ وتعبدنا بتلاوته، من عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم، لا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تزيغ به الأهواء، من تركه من جبار قصمه الله، أنزله سبحانه لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين .

قال : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ [الحشر : ٢١]، فإذا كان هذا شأن الجبل فكيف يكون حال المكلفين ؟!، وهل يليق بهم العبث والمزاح واللعب أثناء سماع الآيات البينات ؟، لقد

بلغ التدبر في آيات الله كل مبلغ، فكان الواحد يمر بقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فيسجد ثم يقول لنفسه هذا السجود فأين البكاء، وسمع أبو الدحداح قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقال: أوَ يَقبل الله منا القرض، فتصدق ببستان له فيه ستمائة نخلة.

ثم ذهب لزوجته يخبرها، فقالت: بشَّرك الله بالخير، ولم تلطم خداً أو تشق جيباً، أو تقول له ضيعتنا، بل عمدت إلى صغارها، تخرج ما في جيوبهم وأيديهم من تمر، لأن البستان قد صار لله تعالى، وكانوا لربما قرأوا الآية الواحدة طوال الليل يتدبرون معناها، فقد قامت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما الليل كله تردد قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور: ٢٧-٢٨].

وقام سعيد بن جبير - رحمه الله - بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا

يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ [آالبقرة :٢٨١]، ويمر الواحد بالآية تبكيه كما صنع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما مر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]، سُمِعَ نشيجه من مؤخرة المسجد.

ولم يقتصر ذلك على الراسخين في العلم، حديثي العهد بمعرفة الإسلام، حكى عبد الواحد بن زيد قال: ركبنا سفينة فانكسرت بعرض البحر، فأوفأتنا إلى جزيرة، فرأينا رجلاً يعبد صنماً، فقلنا ما تعبد ؟ فأشار لهذا الصنم، وقال: وأنتم ما تعبدون قلنا نعبد الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه، قال: فما دليلكم عليه؟، قلنا: بعث إلينا رسول الله، قال: وأين هو؟، قلنا قبضه الله إليه، قال: فما علامتكم عليه؟، قال: ترك لنا كتاب الملك، قال: أرونيه، قال عبد الواحد: فدفعنا له مصحفًا، قال : لا أحسن هذا (أي لا يحسن القراءة).

يقول: فقرأنا له سورة من كتاب الله، وهو يبكي ويقول: ما ينبغي لمن كان هذا كلامه أن يُعصى، قال

عبد الواحد: فعلمناه من شرائع الإسلام حتى آوانا الليل فنمنا، فقال: أإلهكم الذي تعبدونه ينام؟، قلنا: مولانا حي قيوم لا ينام، قال: بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام.

يقول عبد الواحد: فتعجبنا له، وبلغنا عبادان فدفعنا له مالاً، فقال سبحان الله، دللتموني على طريق لم تسلكوه إني كنت أعبد صنماً في البحر فلم يضيعني فكيف بعدما عرفته. وهذه القصة الطريفة التي حكاها ابن الجوزي تدل على مبلغ تدبر الرجل وفقهه رغم حداثة تدينه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

خرج هارون الرشيد يومًا من مجلس الإمارة فاعترضه يهودي، وقال له: اتق الله فنزل هارون من على دابته وسجد على الأرض فقال له أتباعه إنه يهودي، قال هارون: «اتق الله»، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾ [البقرة: ٢٠٦].

فكان عملهم ووعظهم وتذكيرهم يدل على عظيم تدبرهم لآيات الله، ومن ذلك لما قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وذهب إليه الناس يهنئونه وامتنع أبو حازم فبعث له

سليمان يعاتبه، ويقول له : وجوه الناس زاروني وأنت لم تزرني، فقال له أبو حازم : أنت لم تعرفني قبل هذا وأنا لم أرك قبل هذا اليوم، قال يا أبا حازم، قل لي : لماذا نكره الموت، قال: لأنكم عمَّرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتخافون أن تخرجوا من العمران إلى الخراب، قال : فما لنا عند الله غداً، قال: اعرض نفسك على كتاب الله، قال: وأين أجده، قال: عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ(١٦)** ﴾ [الانفطار : ١٣ – ١٦]، وقال : فأين رحمة الله إذن؟ قال : ﴿ **قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦] فهذا التدبر يورث الحزن والفطنة ودقة التمييز بين الطيب والخبيث والفاسد والصحيح ويجعل الإنسان راغبًا راهبًا كما أنه يفضي إلى رسوخ الإيمان في القلب .

قال ابن القيم - رحمه الله - :

الناس ثلاثة : رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له، ليست الآية ذكرى في حقه، فهذا الثاني : رجل له قلب حي مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها

الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، وقلبُهُ مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجُود قلْبه .

والثالث: رَجُلٌ حيٌّ القلب مستعدٌّ، تُليتْ عليه الآيات، فأَصْغَى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهدُ القلْب، مُلْقِي السمع، فهذا القسْمُ هو الذي ينتفعُ بالآيات المتلُوَّة والمشهودة .

فالأول : بمنزلة الأعْمَى الذي لا يُبْصِرُ .

والثاني : بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير الجهة المنظور إليها، فكلاهما لا يَراه .

والثالثُ : بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصرَهُ وقابل، وقابلهُ على توسُّط من البُعد والقرب، فهذا هو الذي يراه .

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور، فاعلم أن الرجل قد يكون له قلبٌ وقادٌ، مليءٌ باستخراج العِبَرِ، واستنباط الحِكَمِ، فهذا قلبه يوقعُهُ على التذكُّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نُورًا على نُورٍ، وهؤلاء أكمَلُ

خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرةَ، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسُولُ مُشاهدٌ لَهم، لكن لم يشعُرُوا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل : إن مثل حال الصدِّيق مع النبي ﷺ كمثل رجُلين دخلا دارًا، فرأى أحدُهُما تفاصيل ما فيها وجزئياتها، والآخر وقعت يداه على ما في الدار ولم يرى تفَاصيلها ولا جُزئياتها، لكن عَلِمَ أن فيها أُمُورًا عظيمة، ولم يُدْرِكْ بصرُهُ تفاصيلها، ثم خرجا فسأله عمَّا رأى في الدَّار فجعل كلما أخْبَرهُ بشيءٍ صدَّقهُ، لما عنده من شواهد، وهذه أعلى الدرجات الصِّديقيَّة، ولا تستَبْعدُ أنْ يَمُنَ اللهُ المنَّانُ على عَبْد بمثل هذا الإيمَانِ فإنَّ فَضْلَ الله لا يدَخُلُ تحْتَ حَصرٍ ولا حُسْبَانٍ .

فصاحبُ هذا القلب إذا سَمِعَ الآيات وفي قلبه نُورٌ من البصيرة ازداد بها نُورًا على نوره، فإن لم يكن للعبد مثلُ هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا، ﴿ **فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** ﴾ [البقرة : ٢٦٥]، والوابلُ والطَّلُّ في جميع الأعمال وآثارهَا وموجبَاتها، وأهلُ الجنَّة سابقُون مُقرَّبُون وأصحابُ يمينٍ، وبينهما في درجات التفصيل ما بينهُما ؟ .

وقد وردت الآيات تستحث العباد على التدبر:

■ قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء : ٨٢].

■ وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ [المؤمنون : ٦٨].

■ وقال: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص : ٢٩].

■ وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد : ٢٤].

كما وردت السُنن توضح قيمة التدبر:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بتُّ عند خالتي ميمونة فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رَقَدَ، فلمَّا كان ثُلُثُ الليل الآخر قَعدَ فنَظَرَ إلى السماء فقَالَ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران : ١٩٠]، ثم قام فتوضَّأ واستَنَّ فَصَلى، إحدى عشرَةَ ركعةً ثُمَّ أذَّن بلالٌ فصلَّى ركعتين ثم خرج فَصَلى الصُّبح » [متفق عليه].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : صلَّى رسول الله ﷺ يومًا صَلاةً فأطال فيها، فلما انصرفَ قُلْنَا ـ أو قالوا ـ يا رسولَ الله أطَلْت اليوم الصلاة، قال : « **إني صَلَّيْتُ صَلاةَ رَغْبةٍ ورهبةٍ، سألتُ الله عز وجَلَّ لأمَّتي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ورَدَّ عليَّ واحدة، سألتُهُ ألا يُسلطَ عليهم عدُوًّا منْ غيرهم، فأعطانيها، وسألتُهُ أن لا يُهْلكهُمْ غَرَقًا، فأعطانيها، وسألته أن لا تجعل بأسهم بينهم، فردَّها عليَّ** » .

[رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح] .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : « **صليتُ مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فافتتح بالبقرة، فقلتُ يركع عند المئة، ثم مضى، فقلتُ يُصلي بها في ركعة، فمضى، ثم افُتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرآها يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ** ... »[رواه مسلم] .

وورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي النبي ﷺ : « **اقرأ عليَّ** »، قُلْتُ : أقْرَأُ عليك وعليك أُنزل؟، قال :

« **فإني أحبُّ أن أسمعهُ من غيري** »، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾** ﴾ [النساء : ٤١]، قال : « **أمسك** »، فإذا عيناهُ تَذْرِفان » [رواه البخاري ومسلم] .

وعن عائشة رضي الله عنها زوْج النبي ﷺ قالتْ : « كان أوَّلُ ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثْلَ فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حِراءَ يتحنَّث فيه ـ وهو التعبد ـ اللَّيالي أولاتِ العَدَدِ » [رواه البخاري ومسلم].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : « ركعتان مُقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا تلا هذه الآية ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحديد : ١٦]، قال : « بلَى ياربِّ، بلى ياربِّ » .

وعن طاوسٍ قال : « قال الحواريُّون لعيسى ابن مريم : يا رُوحَ الله، هل علَى الأرض اليوم مِثْلك ؟، فقال نَعَمْ، من كان منطقة ذِكرًا، وصمْتُهُ فكرا ونظرهُ عِبرةً، فإنه مثْلي » .

قال عبد الله بن المبارك : « مرَّ رجُلٌ براهبٍ عند مقبرةٍ ومزبلةٍ، فناداهُ فقال : يا راهبُ، إن عندك كنزين من كنوز الدُّنيَا، لك فيهما مُعتبرٌ، كَنْزُ الرِّجال، وكَنْزُ الأموال » .

وعن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال : « لأن أقرأ في ليلتي حتى أُصبح بـ ﴿ إِذَا زُلْزِلَت ﴾ و ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ ، لا أزيد عليهما وأترَدَّدُ فيهما وأتفكر أحَبُّ إليَّ من أن أهُزَّ القُرآنَ ليلتي هزًا - أو قال - : أنثُرهُ نَثْرًا » .

قال الفُضيلُ : « إنما نَزَل القُرآنُ ليُعملَ به فاتخذ الناس قراءَتُهُ عَمَلاً، قيل : كَيْف العملُ به ؟، قال : ليُحِلُّوا حَلالَه، ويُحَرِّمُوا حرامهُ، ويأتمِروا بأوامره، وينتهُوا عن نواهِيه، ويَقفُوا عند عجائبه» .

قال ابنُ القيم : أما التأمُّلُ في القرآن فهو تحديق نظر القلْب إلى معانيه ، وجمع الفكر على تدبُّره وتعقلُّه وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر، قال الله تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** (٢٩) ﴾ [ص : ٢٩]، وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** (٢٤) ﴾ [محمد : ٢٤] وقال

تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون :٦٨]، وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)﴾ [الزخرف : ٣] .

وقال الحسن : « نَزَل القرآن ليُتدبَّر ويُعْمل به، فاتخذُوا تلاوته عمَلاً » .

فليس شيءٌ أنفع للعبد في مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ وأقْرَبَ إلى نجاتِهِ من تدبُّر القُرآنِ، وإطالَةِ التَّأمُّل، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطْلِعُ العبد على مَعَالِم الخَيْر والشَّرِّ بحذافيرها، وعلى طُرُقاتهما وأسبابهما وغايتهما وثمراتِهما، ومآلِ أهلهما، وتَنقل في يدهِ مفاتيح كُنُوز السعادة والعُلُوم النافعة وتُثبتُ قواعد الإيمَانِ في قلبه، وتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وتُوطِّدُ أرْكانَهُ، وتُريه صُورَةَ الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار في قَلْبه، وتُحْضِرُه بين الأُمَمِ وتُرِيه أيَّامَ الله فيهم وتبصِّرُهُ مواقِعَ الْعِبَرِ، وتُشْهِدُهُ عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءَهُ وصفاتهُ وأفعالَهُ، وما يُحبُّه وما يُبْغِضُهُ، وصِرَاطَهُ الْمُوصِّلَ إليْه، وما لِسَالكيه بَعْدَ الوُصُول والقُدُوم عليه، وقَوَاطِعَ الطَّريق وآفَاتِها، وتُعرِفُهُ النَّفسَ وصفاتها، ومُفسدات

الأعمال ومُصَحِّحاتها، وتُعرِّفُه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالُهم وسيماهُم، ومراتبَ أهل السعادة وأهل الشَّقاوَة، وأقسَام الخلق واجتماعهُم فيما يجتمعُون فيه وافتراقَهم فيما يفْتَرِقُون فيه .

وبالجملة : تُعرِّفُهُ الرب المدعُوَّ إليه، وطَرِيق الوُصُول إليه، وما لَهُ مِنْ الكَرَامَة إذا قدم عَلَيْه .

وتُعرِّفُه مقابل ذلك ثلاثة أخرى : ما يدعو إليه الشيطانُ والطريق المُوصِلَةَ إليه، وما للمُسْتَجيب لَدَعْوته من الإهانة والعذاب بعد الوُصول إليه .

وفي تأمُّل القرآن وتدبُّره وتفَهُّمه أضْعَافُ أضْعَاف ما ذَكَرْنَا من الحِكَم والفوائد .

عباد الله : القرآن ليس كتاب مطالعة ولا جغرافيا، بل هو كلام رب العالمين، فتدبروه ولا تنثروه نثر الرمل، ولا تهزوه هز الشِّعر، قفوا عند عجائبه، حركوا به القلوب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كلا إنّها تذكرة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فإنّي مُحذّرك من دار منقلبك إلى دار إقامتك، وجزاء أعمالك، فتصير في باطن الأرض بعد ظهرها، فيأتيك منكر ونكير، فيقعدانك فينتهرانك، فإن يكن الله معك، فلا فاقة ولا حاجة، ولا بأس ولا وحشة، وإن يكن غير ذلك، فأعاذني الله وإياك يا أخي من سوء المصرع، وضيق المضجع، ثم تبلغك صيحة النشور، ونفخة الصور، وقيام الخلائق لفصل القضاء، وامتلأت الأرض بأهلها، والسماوات بسكانها فباحت الأسرار، وسُعرت النار، ووضعت الموازين، ونُشرت الدواوين ﴿ **وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر: ٦٩].

فكم من مفتضح ومستور، ومُعذّب ومرحوم، وكم من

هالك وناجٍ، فيا ليت شعري، ما حالي وحالك يومئذ، فإنَّ هذا ما هدم اللذات، وسلى عن الشهوات، وقصَّر من الأمل، وأيقظ النائم، ونبَّه الغافل .

أعاننا الله وإيّاك على هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا من قلبك وقلبي موقعها من قلوب المتقين، فإنما نحن له وبه، والويل لمن كانت الدنيا أمله، والخطايا عمله، عظيم بطنته، قليل فطنته، عالم بأمر دنياه، جاهل بأمر آخرته، أعربنا الكلام فما نلحن، ولحنا في الأعمال فما نُعرب، كلنا قد حسن ظاهره، فمن منَّا حسَّن باطنه، نُرقّع دنيانا بتمزيق ديننا، نُبيّض الثوب في الوقت الذي نُدنّس فيه الدين، ويحافظ الواحد منَّا على نعله، بينما قد لا يُحافظ على دينه، ويُكرم نفسه بما فيه إهانتها، سهُل وخفَّ الكلام فتكلمنا، ورأينا العمل كأمثال الجبال، فنكصنا على عقبنا القهقري، وحدث الانفصال الرهيب بين الدنيا والآخرة والأرض والسماء. . . كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: أخاف أن يُقال يوم القيامة يا عويمر، هل علمت؟ فأقول نعم، فيُقال: ماذا عملت فيما علمت؟».

وأنت بدورك علمت الكثير، فلماذا تخلَّفَ الفعل عن القول، ما الذي غرّك من الدنيا؟ قفْ ساعة وتفكّر مَنْ خلقك، ولماذا خلقك، وإلى أين المصير، وهل حالك يصلح للإجابة على الأسئلة الثلاثة التي ستوجه لك حتمًا، مَنْ ربك؟ وما دينك؟ وماذا تقول في الرجل الذي بُعث فيك؟، أراحل أنت أم مُقيم؟، وإذا كنت مرتحلاً فإلى أين؟ أإلى جنَّة أم إلى نار؟، الحياة بغير الله سراب ﴿ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)** ﴾ [النور : ٣٩].

لقد افتضح أمر البعض على أمثال أبي جعفر المنصور، وقال : كلكم يمشي رويداً، كلكم يطلب صيداً، فكيف يكون حالك إذا وقفت بين يدي من لا تخفى عليه خافية ﴿ **أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)** ﴾

[المجادلة : ٦].

إنَّ السعيد من صرف الله أمله إلى ما يبقى، وقطعه عما يفنى، وأعانه في دار الفناء على عمارة دار البقاء، والويل الطويل والحسرة التي لا تزول لمن أعرض عن الكتاب

والسُّنَّة، ولم ينهَ نفسه عن الهوى، تفكّر في الدنيا ولذّاتها وشهواتها، فاعتبر منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إنَّ فيها مواعظ لمن ادَّكر، لقد غفلت وليس بمغفول عنك، وأملك دنيا والموت يطلبك، وبنيت قصراً والقبر مسكنك...

كلا إنها تذكرة، فلا تتبرم، فقد روجع بذلك من هو أفضل منك صلوات الله وسلامه عليه؛ لانصرافه عن ابن أم مكتوم الأعمى، وإقباله على صناديد وأشراف قريش لدعوتهم، نزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [عبس: ١ - ١١].

عاتبه سبحانه بسبب ابن أم مكتوم حتَّى لا تنكسر قلوب الضعفاء، رغم أنَّه ﷺ كان يطمع في إيمان أشراف قريش، وسيُسلم بإسلامهم خلق كثير، أي أنه ﷺ كان في

مهمة دعوية، ولم يكن انصرافه لأمر دنيوي، فما الذي يُقال لمن باع دينه بدنياه، أو باع دينه بدنيا غيره.

كلا إنها تذكرة، فلا تستنكف عن قبولها، فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين، واحذر النسيان الذي يُدمر دينك ودنياك، فقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿ **يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)** ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر: ١٩].

إنَّ الشيطان جاثم على قلب العبد، فإذا سها وغفل وسوس له الشيطان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومن شأن الشيطان إنساء العبد مصالحه ﴿ **وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** ﴾ [الكهف: ٦٣]، ولذلك قال سبحانه: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)** ﴾ [الكهف: ٢٤].

إن الذكر من أعظم الأسلحة التي تحسم المعركة مع شياطين الإنس والجن، ومع ذلك صار البعض ينظر إليه على

أنه دروشة، أو أنه خاص بالصوفية، وقد نُسارع باتهام من حرَّك لسانه بذكر الله بأنه مرائي!! وهذا من قصور النظر، ومن حظوظ الشيطان، فإنَّ الطاعات ما شُرِعت إلاَّ إقامةً لذكر الله ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** (١٤) ﴾ [طه: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال: ﴿ **فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال: ﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وقال: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** (٤١) ﴾ [آل عمران: ٤١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان النَّبيُّ ﷺ يذكر الله على كل أحيانه » [رواه مسلم].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: « إنَّا كنَّا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة يقول: « **رب اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم** ».

سمعوه ﷺ وهو يقول ذلك، وهو سيد المخلصين، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر]، كان رسول الله ﷺ يُكثر في ركوعه وسجوده من قول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن. [رواه البخاري].

وعنها أيضًا قالت: ما صلَّى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلاَّ يقول: «**سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» [رواه البخاري].

والإسرار بالذكر في موطنه سُنَّة، والجهر في موضعه سُنَّة، وحسبُك أن تُكثر من ذكر الله، وأن تُخلص العمل له سبحانه، فترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يُعافيك الله منهما، والحذر من احتقار شأن الذكر، فهو من أعظم الطاعات وأجلّ القربات.

ونحن في آونة تستدفع كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أن يُعظم حرمات الله، ومن جملة ذلك الأذكار، ومن الخطأ أن نُعوّل على الجدل والطول والأسباب المادية وحدها في مواجهتنا لأعداء الإسلام والمسلمين، وفي

خروجنا من هذا الواقع السَّيِّئ، أو أن نظن أنَّ الأذكار نوع من اللعب، وتكريس للضعف الذي أصابنا.

إنَّ الأذكار سالمة عن كل معارضة في العسر واليسر، والقوَّة والضعف، بل قد نعجز عن كثير من صور القوَّة المادية، وتتحقق الخيرات والبركات للبلاد والعباد بذكر الله، فقد استعان السلف الصالح على فتح الحصون بكلمة: «لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله».

وقال ابن تيمية: آية الكرسي نافعة في دفع شياطين الإنس والجن، ومن قرأ الآيتين الأواخر من سورة البقرة كفتاه، وما تعوَّذ أحد بمثل المعوذتين - «قل أعوذ برب الفلق»، و«قل أعوذ برب الناس» - .

وقال القرطبي: نزلتُ بالمهديَّة ليلاً، فلدغتني عقرب، فتفكرتُ في نفسي، فوجدتُ أني نسيتُ الذكر - أي نسي أن يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» - .

وفي الحديث: «**ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فطرد الشيطان عنه**».

وورد: «**إنَّ الله يقول: أنا مع عبدي إن هو ذكرني وتحرّكت بي شفتاه**» فأبشر بهذه المعية.

وكان النَّبيُّ ﷺ يدعو: «**ربِّ أعنّي ولا تُعن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسر الهدى إليَّ، وانصرني على من بغى عليَّ..**» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. ومن السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث: «**لا يقعد قوم يذكرون الله - عزَّ وجل - إلاَّ حفَّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**» [رواه مسلم].

ومما يُقال عند الكرب والمصيبة: «**لا إله إلاَّ الله الحليم، سبحان الله، وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين**» [رواه البيهقي بإسناد حسن].

وفي الحديث: «**من تعار من الليل فقال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وهو على كل شيء قدير،**

وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استُجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلَّى قُبلت صلاته» [رواه البخاري]. وقال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ واحدة، صلَّى اللهُ عليه عشراً» [رواه مسلم].

وكان النَّبيُّ ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلاَّ الله العظيم الحليم، لا إله إلاَّ الله رب العرش العظيم، لا إله إلاَّ الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»

[رواه مسلم].

وقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، إذا أويت إلى فراشك، فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلاَّ إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإنَّك إن متَّ من ليلتك متّ على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً» [متفق عليه].

وقال رسول الله ﷺ: «**من قال** - يعني إذا خرج من بيته - : **بسم الله توكلتُ على الله، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، يُقال له هُديت وكُفيت، ووُقيت، وتنحَّى عنه الشيطان**» [رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه]، زاد أبو داود: «**فيقول** - يعني الشيطان لشيطان آخر - : **كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟**».

وكان النَّبيّ ﷺ إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله توكَّلتُ على الله، اللهم إني أعوذُ بك أن أضلَّ أو أُضل، أو أذلَّ أو أُذل، أو أظلِمَ أو أُظلم، أو أجْهَلَ أو يُجهل عليَّ**» [رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانًا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل» [رواه البخاري].

خذوا بالأسباب المادية ما استطعتم، ولكن لا تنسوا ذكر الله، فهو حال جميع الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان

إلى يوم الدين، هذا حال صغارهم وكبارهم، حال أصحاب الكهف، وهم يقولون: ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** (١٠) ﴾ [الكهف: ١٠]، وحال الغلام في قصة أصحاب الأخدود، وهو يقول في كل مرة: «**اللهم اكفنيهم بما شئت**».

وحال الأنبياء أعظم وأكمل، فهذا نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿ **إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ** (٩٩) ﴾ [الصافات: ٩٩]، ونبيّ الله لوط عليه السلام يقول: ﴿ **إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي** ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ونبيّ الله موسى عليه السلام يقول: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** (٨٤) ﴾ [طه: ٨٤]، ولما قالت له بنو إسرائيل: ﴿ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال: ﴿ **كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** (٦٢) ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهذا نبيُّ الله يونس عليه السلام يقول وهو في جوف الحوت: ﴿ **لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٨٧) ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

إنَّ الذكر حياة للقلب، وقوَّة للنفس، وأمان من النفاق، به تُستجلب النعم، وتُستدفع النقم، ويتحقق به الفلاح والفوز ونور في الدور كلها، يُذيب قسوة القلب، ويُذهب مخاوفه، يُسهل الصعب، ويُيسّر العسير، يُؤمن العبد من الحسرة، وهو أيسر العبادات وأفضلها.

وأفضل أهل كل طاعة أكثرهم فيها ذكراً لله، فأفضل المجاهدين الذاكرين، لا داعي للقول بأنَّ المعركة لا تُحسم إلاَّ بالسيف، ولكل مقام مقال، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٤٥) ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.